الامثال والاساطير اللبنانية

المختصّة باشهر السنة الشمسية

بقلم لحد خاطر

نيسان

نيسان من اصل بابلي ومعناه في العبرية: « الزهر » و«الاسبال » و«السبل الاخضر » . سمي كذلك لان الازاهير والزروع تظهر فيه ، وقيل انه مركب من كلمتين فارسيتين : « نو » و« سان » ومعناهما: « اليوم الجديد » اشارة الى تجدد الطبيعة فيه بمناسبة الربيع ، يقابله من اشهر الفرنجة « اثريل » من لفظة لاتينية معناها: « الافتتاح » او « الابتداء » ، ولعلهم اطلقوها عليه لان الارض تفتح فيها احشاءها وتخرج النبات ، او لانه كان عند بعضهم زمن مفتتح السنة او مبتدأها . خصه الاقدمون بالالهة « ثنوس » آلهة الحب والجمال والمعروفة عند العرب بالزهرة وجعلوا بعض ايام من اوله اعيادًا لها ، وصوره الرومانيون بشكل رجل يرقص بين العازفين ، وكان الشهر الثاني من سنتهم المبتدئة باذار . اما الفرنسيون فكان عندهم في الاجيال الوسطى مطلع السنة الى ان نقله ملكهم شارل التاسع في السنة ١٥٦٤ الى اول كانون الثاني ، ومن ثمّ تابعهم الناس على ذلك الى يومنا . ويقولون ان هذا النقل كان اخصّ الاسباب في « كذبة اول نيسان » المعروفة ، لان القوم لما كان هذا الشهر مطلع السنة كانوا يتهادون فيه ويتعايدون ، فلما نقل الى كانون الثاني صارت معايداتهم فيه مزاحاً ودعابةً وهداياهم وعردًا فارغة واكاذيب ، فجرى ذلك عادة عندهم كل عام ، وانتقلت هذه العادة منهم الى غيرهم الى ان اتصلت الينا ، اما « سمك نيسان » فالمقول فيه انه مأخوذ عن « برج الحوت » او « برج السمك » كما يدعى في لغاتهم وهو البرج الذي تنتقل منه الشمس في هذا الشهر .

يكون نيسان عادة في لبنان ذا جو صاف يكثر فيه الصحو وقد تشتد الحرارة فتظهر الدبابات والهوام من مخابئها والطيور من اوكارها ، ويخرج الناس الى

الحقول تتهدد الاشجار بالشذب والارض بالحرث والكل فرح مسرور بادبار الشتاء وباقبال الربيع . ومن اقوال العامة في ذلك :

« في نيسان تدخل الشمس برج الثور ، وتخلع على الدنيا ثوب النور ».

وقولهم : « في نيسان اطفِ نارك ، وافتح شبابيك دارك ، واسبح في الشمس لزنارك » .

وقد يشتد البرد في نيسان بعض السنين وتتساقط الامطار والثلوج ، على ان ذلك نادر . وقد حصل مرة في احدى السنين ان نزلت ثلوج في نيسان غطت اكداس الحطب والجرزون ، فقالوا في ذلك عبارة ما برحوا يرددونها كل عام ، متى جاء نيسان ، على سبيل الذكرى وهي : « لا تتعجب يا انسان ، في نيسان ، جرفنا الثلج عن الكدسان » وهذه الاكداس من الحطب يقطعونها في آذار ويحفظونها في الحقل ريثما تيبسها الشمس فينقلونها الى المنازل للانتفاع بنارها في الشتاء القادم ، ولكنهم ستئذٍ اضطروا الى نقلها في نيسان ، بسبب ما حصل عندهم فيه من البرد الشديد ، الذي لم يكونوا بانتظاره ولا اتخذوا العدة لاتقائه .

ويروى ان الثلوج تساقطت سنة اخرى في نيسان فغطت المراعي ، وكان العلف المدخر للشتاء قد نفد فتعذر على الفلاحين ان يجدوا ما يغذون به ماشيتهم ، ثم ان بعضهم كانوا شذبوا كرومهم فجاءوا يجرزونها للماشية علفاً فاكلت وعاشت ، ولكن البرد اضر بكرومهم اذ تعرت بالشذب فيبست ، اما الذين لم تشذب كرومهم فقد سلمت لانها لم تتعرض للبرد كالاولى ، ولكن ماشيتهم لم تجد ما تأكله فهلكت ، فقالوا في ذلك عبارة ما برحوا يرددونها كلما سقط الثلج في نيسان او خيف من تساقطه ، من باب التمثل ، وهي : « ما قلنا راح آذار وهدراته ، حتى اجانا نيسان بثلجاته ، فالذي شحّل كرماته ، ربح بقراته ، وخسر كرماته ، والذي ما شحّل كرماته ، خسر بقراته ، وربح كرماته » .

ولا يخفى ان هذه الرواية على سذاجتها وايجازها تروي حادثاً تاريخياً قد يجد فيه فلاحو اليوم عبرة وذكرى .

ولشذب الكروم عندهم (او تشحيلها او تربتها) طرق متوارثة تدل على حذق ومهارة ، منها طريقة حرية بالذكر يسندونها الى شيخ من شيوخهم مر

بكرّام رآه يشذب كرمه فوقف يراقبه ، فاذا الكرام اكتع ولا يحسن العمل ، فنصحه الشيخ قائلًا : « اقطع يا ابني من الدوالي ما كان مثلي ، ومن القضبان الراضع والراجع وما كان مثلك » فذهبت نصيحته قاعدة للشذب يرددونها ويجرون عليها . وقد اراد الشيخ بما كان مثله من الدوالي الهرم الفاني ، واراد بالباقي الثابت على الاصول والعائد الى الوراء والاكتع او المعوج ، وكلها تسيء الشكل الهندسي للدالية وليس منها فائدة تذكر . اما القضبان التي تترك فهي المساة في عرفهم « الملوك » وميزتها النماء والنضارة ويشذبونها عادةً على برعمين الى ستة تبعاً لمقدار نموها ونضارتها .

وفي الغالب يكون نيسان في لبنان ناجياً من الثلج ، قليل المطر ، فتحتاج الزروع فيه حاجة شديدة الى مطرة ترويها . وتساعدها على الاسبال ، لذلك اشاد اللبنانيون بمدح مطرة نيسان . وعظم فائدتها ، فما قالوا فيها :

« المطرة في نيسان ، بتسوى القرقة والصيصان » . والاصل في هذا القول ان اميرًا لبنانيًا استصنع احد الصاغة دمى من ذهب ، مرصعة بالماس والحجارة الكريمة ، تمثل الدجاجة وفراخها المساة في لبنان « القرقة وصيصانها » ، وكان فخورًا جدًا بهذه الدمى وكثرة ثمنها ، وقد دخل عليه في يوم من نيسان بعد جفاف طويل خيف منه على يباس الزروع احد المقربين منه ، فسأله الامير : « والقرقة والصيصان » على طبق بين يديه : « بكم تثمن هذه القرقة والصيصان ؟ » اجاب الرجل : « ايها الامير ، مطرة في نيسان بتسوى القرقة والصيصان » . مشيرًا بذلك الى ان ما ينجم عن مطر نيسان من الخصب في الغلال لا يُمكن تثمينه ، فذهب جوابه مثلًا .

ويقولون ايضاً بهذا المعنى : « المطرة في نيسان ، بتحيي الانسان » . « والمطرة في نيسان ، جواهر ما لها اثمان » . « والمطرة في نيسان ، بتسوى السكة والفدان » ومعناه لا تحصل فائدة من السكة والفدان وما يزرع بهما ، ان لم ترو تلك الزروع امطارُ نيسان . ويقولون : « في نيسان الدلفة في الحارة ، بتجيب اليها من القمح غرارة » لان الدلفة لا تحصل ما لم ينهمل المطر ، والمطر ينعش الزروع ويوفر الغلال ويزيدها اقبالًا .

ويستنكرون انحباس المطر في نيسان كل الاستنكار ، لما يعقب ذلك من جدب ويقولون : « نيسان بلا شتي ، مثل العروس بلا جلي » اي ان نيسان ، على جماله ، اذا لم تقع فيه الامطار ، فلا يستقلّ الفلاحون فيه من مواسمهم ما يسرّهم ، كما ان العروس ، مهما كانت جميلة ، اذا لم ترَفّ بحفلة غناء وطرب ، فلا يجد حاضرو العرس ما يدعوهم فيه الى الاغتباط والبهجة .

وقد يشتد الحر في نيسان فتبدل الاثواب الثقيلة بالاثواب الصيفية الخفيفة ، وبذر الصوف التي للاسرّة بذر القطن والكتان المستعملة عادةً في الصيف ، ويقولون في ذلك : « في نيسان ، بتصير الدنيا عروس ، وبيخففوا القطا والملبوس » على انهم يتحفظون في هذا التبديل محاذرين التسرع فيه ، لما قد ينجم عنه احياناً من اذى البرد ، ولاسيما في الليل ويقولون : « في نيسان من خفف لبسه ، في خفو شمسه ، اضرّ نفسه » . وشمس نيسان عندهم ذات فائدة لمن يتعرّض لها ، لذلك اشتهتها العجوز « لها ولشيتها » كما مرّ بك في الكلام عن شهر شباط .

ويظهر ان التبكير في غرس الاشجار الذي اشرنا اليه عند كلامنا على الكانونين لا يصح في غرس التين الذي موعده نيسان ، كما يتضح من المثل العامي الآتي : « متى صار ورق التين كف غراب ، قصّ ونصاب » ولا يصير ورق التين كذلك ، ولاسيما في الجبل ، الا في شهر نيسان .

وفي اعالي الجبال يزرعون الحمص في هذا الشهر ويقولون في ذلك : « متى صار ورق التين كف غراب ، ازرع حمصك في التراب » وفي نيسان تجمّ اغراس التوت المزروعة حديثاً اي تقطع لتنمو ويقولون في ذلك : « شمّ وجمّ » اي قف حذاء الغرسة واقطعها على مساواة انفك . وهذا قياس للطول الواجب ان يترك لاغراس التوت عند « جتها »

ويستحسن من مواليد الماشية في نيسان امهار الخيل ، ويقولون في ذلك : « لا تقتني الا مهر نيسان » لان الطقس يوافقه فينمو ويؤمّل له المستقبل الحسن .

وفي اواسط نيسان تظهر الطبيعة في لبنان بمظهر الصيف ، مع ان هذا الشهر هو من فصل الربيع ، ويقولون في ذلك : « شمّن وادخل » اي بعد الشمينة التي تكون غالباً في نيسان يدخل الى الصيف او الى جوّ جميل يشابه جوّ الصيف .

وفي نيسان يستثمر عادةً موسم القز الذي ما زال اللبنانيون يعدّونه اهم مواردهم الاقتصادية ، رغم ما ناله من الصدمات ، في هذه السنين الاخيرة ، ولهم في هذا الموسم امثال وتقاليد كثيرة نورد بعضها هنا لانها ذات علاقة بالموضوع الذي نعالجه. منها :

« في نيسان الحكم للنسوان » لان النساء يرئسن ادارة الموسم فينطلقن من قيود الاعمال المنزلية ويأمرن الرجل بعمل ما يحتجن اليه من المعاونات في مهامهن، ويستخلص من ذلك ان رئاسة الاسرة في لبنان كانت دائماً للرجل على ما اوجبته النواميس الالهية والطبيعية. ومنها : « القزّ بدها قزّ » اي يلزمها تعب وعناء . ويقولون في مراحل القز او اطوارها الاربعة المسماة بالفطرات : « اول فطرة ، الطعمة قطرة قطرة ». « في فطرة التنتين ، دلّي الطبق طبقين ، واستبشري بوفاء الدين ». « في فطرة التلاتي ، حطي الواطي عالي والعالي واطي ، واصحي من الشاتة » . « في فطرة الرابعة ، طعمة متتابعة ، ان سلمت ذهب ، وان مرضت يا ضيعان التعب ». وبعد ان تصير القز في اليوم الخامس بعد الفطرة الرابعة يقال : « ليلة الخمسة ، كبري الكمشة ». « ليلة الستة ، كمشي وحطي ». « ليلة السبعة ، ما لها شبعة ». « ليلة الثانية ، عجوز ثانية ». « ليلة التسعة ، راحت على الشيح تسعى ». « ليلة العشرة ، اكلنا فشرة » ، اي قليلة . ويقال ايضاً : « عشر ، ودشر ». ويقال : « طلعت القزّ على الشيح ، اقبر مرتك واستريح. »

وفي هذا المثل الاخير اشارة الى ان المرأة في لبنان تعاون الرجل في اعماله البدوية ولاسيما في تربية القز ، ولاجل هذه المعاونة يرى نفسه في حاجة قصوى اليها، فاذا فرغ من العمل استغنى عنها ، وقد عرفت في بعض القرى اعزاباً يلحّون بالزواج قبيل موسم الحرير ليكون الى جانبهم فيه زوجة تعاونهم عليه ، ولولا ذلك لارجأوا الزواج بل لما اقدموا عليه.

ويقولون ايضاً في نيسان ، تنشد العصافير الاغنية الآتية : « طاطا وزّ ، طاطا وزّ ، هي المنجل جات القز ». فمن طالع هذه العبارات العامية رأى فيها صورة صحيحة للحركة النشيطة التي تظهر في الاوساط الزراعية في لبنان ايام القز ، وادرك ما اتصف به الفلاح اللبناني من الذكاء والاقدام وبعد الهمة.